خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي ؑ

بتاريخ ٢٠٢٥/٦/١٣

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

قبل بضعة أسابيع، ذكرتُ مقدمة عن فتح مكة، واليوم سأوضح المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع. قد ذُكر بشأن السبب المباشر لهذه الغزوة، أن قريشًا نقضت المعاهدة التي أُبرمت في الحديبية، وقالت بتكبر: ننهي المعاهدة وسنقاتل محمدًا (ﷺ). وعندما وصلت هذه الأخبار إلى النبي ﷺ، اتجه نحو مكة. وتفاصيل نقض قريش للعهد كما يلي:

عندما أُبرمت معاهدة صلح الحديبية، كان من شروطها أنه مَن أراد من قبائل العرب أن يدخل في عهد النبي ﷺ دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه. كانت قبيلة بني خزاعة وبني بكر تقطنان حول الحرم، فاختارت بنو خزاعة أن تدخل مع النبي ﷺ في هذه المعاهدة، بينما دخلت بنو بكر، وهي منافسة لبني خزاعة، مع قريش. وبذلك أصبح الطرفان في مأمن من القتال بينهما.

كانت هناك عداوة بين بني خزاعة وبني بكر في الجاهلية، حيث قتلت بنو بكر شخصًا من بني خزاعة، فقامت بنو خزاعة بقتل ثلاثة رجال من بني بكر داخل حدود الحرم. وعندما بُعث النبي ﷺ، انشغل الناس بالإسلام، (لأنهم كانوا أمام أمر جديد لهم فأصبحوا يتكلمون عنه) وتوقفوا عن القتال، لكنهم بقوا يكنّون في قلوبهم الحقد والغضب تجاه بعضهم البعض.

عندما جاء شهر شعبان في السنة الثامنة الهجرية، وكان قد مضى على صلح الحديبية اثنان وعشرون شهرًا، هجا شخص من بني بكر رسول الله ﷺ وصار يتغنى بهجائه، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه، فثار الشرّ بين الحيَّين مما كان بينهم من العداوة التي كانت قد توقفت مؤقتًا. وكان الذي هجا ينتمي إلى بني نُفَاثة أحد فصائل بني بكر، فطلب بنو نُفَاثة من أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة بعد أن جرح غلام من خزاعة شاعرَهم المذكور، فوعدوا لإمدادهم بذلك إلا أبو سفيان الذي لم يكن على علم بهذا الحدث ولم يشاوروه في ذلك، وقيل شاوروه فأبى عليهم ذلك أي

الحرب، ومع ذلك فقد أمدّهم قريش بالرجال والفرس والسلاح، فبيتوا خزاعة أي جاؤوهم ليلا بغتة حتى لا يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم، وكان بنو خزاعة يشعرون بأنهم آمنون بسبب المعاهدة وبالتالي كانوا غافلين عن عدوّهم.

تواعدت قريش وبنو بكر وبنو نُفَاثة على اللقاء عند مكان يقال له الوتير، وهو موضع أسفل مكة، تقع على بعد ستة عشر كيلومترًا إلى جنوب غربي مكة على حدود الحرم، وهو منازل خزاعة؛ فوافوا للميعاد، وكان فيهم رجال من قريش من كبارهم متنكرون منتقبون، منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وحويطب بن عبد العزى، وشيبة بن عثمان، ومكرز بن حفص، وأجلبوا معهم أرقاءهم، ورأس بني بكر نوفل بن معاوية الدئلي، فبيتوا خزاعة ليلا وهم آمنون وغافلون عنهم، وعامتهم صبيان ونساء وضعفاء الرجال، فأصابوا منهم و لم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا إلى أنصاب الحرم، فقال أصحاب نوفل بن معاوية له: يا نوفل إلهك إلهك قد دخلت الحرم! فقال نوفل: كلمة عظيمة، لا إله لي اليوم، فواصلوا قتلهم حتى في الحرم.

فقتل بنو بكر عشرين رجلاً من بني خزاعة ذلك اليوم.

شعرت قريش بالندم على ما صنعوا لاحقًا وقلقوا وعرفوا أن هذا الذي صنعوه نقض للذمة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ. وقال سهيل بن عمرو لنوفل: قد رأيت الذي صنعنا بك وبأصحابك ومَن قتلتَ من القوم، وأنت قد حصدتهم تريد قتل مَن بقي، وهذا ما لا نطاوعك عليه، فاترُكْهم فترَكَهم، فخرجوا.

وجاء الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة إلى صفوان بن أمية، وإلى سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل فلاموهم بما صنعوا من عونهم بني بكر على خزاعة، وقالوا: إن بينكم وبين محمد مدة وهذا نقض لها.

وجاء الحارث بن هاشم إلى أبي سفيان وأخبره بما فعل القوم، فقال: هذا أمر لم أشهده و لم أغب عنه، وإنه لشر، والله ليغزونا محمد (ﷺ)، ولقد حدثتني هند يعني زوجته أنها رأت رؤيا كرهتها، رأت دما أقبل من الحجون (وهو جبل يبعد عن بيت الله ميل ونصف باتجاه وادي مُحَصَّب) يسيل حتى وقف بالخندمة (وهي جبل معروف في مكة على طريق مِنى)، فكره القوم ذلك.

على أية حال، لقد أعلم الله تعالى النبي ﷺ كشفًا عن هذه الغارة على بني خزاعة، فعن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بات عندها ليلة، فقام ليتوضأ إلى الصلاة، فسمعته يقول في متوضئه: "لبيك لبيك لبيك، ثلاثا، نصرت نصرت نصرت، ثلاثا". فلما خرج، قلتُ: يا رسول الله، سمعتك تقول في متوضئك: لبيك لبيك ثلاثًا، نصرت نصرت ثلاثًا، كأنك تكلم إنسانًا، فهل كان معك

أحد؟ قال: هذا راجز بني كعب -أحد فصائل بني خزاعة- يستصرخني على بني بكر. وقد رأى ﷺ ذلك كشفًا أن الراجز كان يقول: إن قريشا أعانت عليهم بني بكر بن وائل.
قالت السيدة ميمونة رضي الله عنها: صلّى رسول الله ﷺ الصبح بالناس بعد أن مكث ثلاثا، فسمعتُ الراجز ينشد: يا رب إني ناشدٌ محمدا * حِلْفَ أبينا وأبيه الأَتْلَدَا
وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال لعائشة صبيحة كانت وقعة بني نُفَاثة وخزاعة بالوتير: "يا عائشة: لقد حدث في خزاعة أمرٌ" فقالت عائشة: يا رسول الله، أترى قريشا تجترئ على نقض العهد الذي بينك وبينهم، وقد أفناهم السيف؟ فقال رسول الله ﷺ: "قد نقضوا العهد لأمر يريده الله تعالى". فقالت: يا رسول الله "خير"؟ قال: "خير". أي قد شاء الله ﷻ أن ينقضوا العهد فيعاقَبوا على ذلك.
لقد ذكر سيدنا المصلح الموعود ؓ أيضا هذا الحدث بأسلوبه، فقال:
تقول السيدة ميمونة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ نائما في بيتي ذات ليلة، وحين استيقظ للتهجد تكلم أثناء الوضوء وسمعتُ صوته، يقول: "لبيك، لبيك، لبيك"، ثم قال: "نُصرتَ، نُصرتَ، نُصرتَ". عندما خرج سألتُه: هل جاءك رجل كنتَ تتكلم معه؟ قال: "نعم، لقد عُرِض علي في الكشف وفدٌ من بني خزاعة وكانوا يصرخون ويقولون: يا محمد نناشدك بربّك ونقول بأننا عقدنا العهود معك ومع آبائك وظللنا ننصرك ولكن قريشا نقضوا عهدنا وهاجمونا ليلا بينما كان بعض منا في السجود وآخرون في الركوع فقتلونا وجئناك الآن مستنجدين. فقد رأيت شخصا من بني خزاعة واقفا في الكشف فقلتُ: لبيك، لبيك، لبيك، أي أنا مستعد لنصرتكم. ثم قلتُ: نُصرتَ، نُصرتَ، نُصرتَ".
تقول السيدة عائشة رضي الله عنها إن النبي ﷺ جاء إلى بيتي صباح اليوم نفسه وقال: "لقد تعرَّضتْ خُزاعة لحادث خطير". تقول السيدة عائشة إني فهمت أن الحادث الخطير الذي تعرض له بنو خزاعة ليس إلا أن بني خزاعة يسكنون على الحدود وبينهم وبين أهل مكة عهد فلا بد أن يكون أهل مكة قد هاجموهم. قلتُ: يا رسول الله، هل يمكن أن تنقض قريشٌ المعاهدةَ على الرغم من كل هذه الأحلاف ويهاجموا بني خزاعة؟ قال: "إنهم ناقضون العهد لحكمة إلهية". وكانت الحكمة أن الهجوم لم يكن مسموحًا للنبي ﷺ ونتيجة للغارة صار ذلك مسموحا له. قلتُ: يا رسول الله، هل ستكون نتيجتها حسنة؟ قال: "نعم ستكون حسنة".
وقد ورد في تفصيل ذلك أنه بعد هذا التصرف الغاشم لبني بكر وقريش خرج عمرو بن سالم في أربعين راكبا من خزاعة يستنصرون رسولَ الله ﷺ وكان معهم رئيس خزاعة بُديل من ورقاء الخزاعي أيضا، فأخبروه بالذي أصابهم، وما ظاهرت عليهم قريش ومعاونتهم لهم بالرجال، والسلاح، والكُراع (أي الخيل)، وحضور صفوان بن أمية وعكرمة، ومن حضر من قريش، وكان رسول الله ﷺ جالسا مع

الصحابة في المسجد، فلما أنهوا كلامهم، قام رئيس خزاعة عمرو ابن سالم، فاستنصر النبيَّ ﷺ بقراءة الأبيات ومنها:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا

فقال رسول الله ﷺ "نُصرتَ يا عمرو بن سالم."

قال عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: لما قدم ركب خزاعة قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه خبرهم، قال رسول الله ﷺ: "فمن تهمتكم وظنتكم؟" قالوا: بنو بكر، قال: "أكلُّها؟" قالوا: لا، ولكن بنو نُفَاثة التي رئيسهم نوفل بن معاوية. فقال: "هذا بطن من بني بكر".

فلما أخبر بنو خزاعة النبيَّ ﷺ الخبرَ كلَّه قال لهم: "ارجعوا متفرقين"، أي لا تعودا في صورة ركْب بل يجب أن تعودوا متفرقين. قال ذلك لئلا يطّلع أحد على لقائهم به ﷺ، فقد أخفى الأمر، فانصرف بنو خزاعة متفرقين، إذ ذهب بعضهم إلى الساحل، ولزم بُديل بن ورقاء في نفر من قومه الطريقَ العام.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ قد غضب مما كان من شأن بني كعب، أي خزاعة، غضبا لم أره عليه قط.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حين اطلع على ما تعرَّض له بنو خزاعة قال: "والذي نفسي بيده لأمنعنَّهم مما أمنع منه نفسي وأهلي وبيتي".

لقد ذكر سيدنا لمصلح الموعود رضي الله عنه أيضا تفصيل هذه الغزوة بأسلوبه، فقال:

في العام الثامن للهجرة في شهر رمضان خرج الرسول الكريم ﷺ للحملة الأخيرة التي أقامت الإسلام في أرض الجزيرة العربية.

وتفصيل ذلك أن في الحديْبية صدر القرار أن من أراد من قبائل العرب التحالفَ مع أهل مكة أو مع النبي ﷺ فله الخيار في ذلك، واتُّفق أيضًا على إيقاف الحرب لعشر سنوات بين الطرفين إلا أن ينقض أحدهما الاتفاق بالهجوم. وفي إطار هذا الاتفاق دخلت بنو بكر في حلف مع أهل مكة، ودخلتْ خزاعة في حلف مع الرسول ﷺ.

ولما كان احترام العرب للمعاهدات ضئيلاً، خاصة لمعاهداتهم مع المسلمين. حدث أن كان بين بني بكر وخزاعة ثارات قديمة، فاستشارت بنو بكر أهل مكة بعد فترة من صلح الحديبية أن بني خزاعة قد اطمأنوا بسبب المعاهدة والآن عندنا فرصة لأخذ الثأر منهم، فاتحدت قريش مكة مع بني بكر وشنوا غارة على بني خزاعة ليلا وقتلوا كثيرًا من رجالهم. وعندما علمت خزاعة أن قريشًا شنّوا الهجوم مع بني بكر، أرسلوا فورًا أربعين رجلًا على الإبل السريعة إلى المدينة لإبلاغ رسول الله ﷺ بهذا النقض للعهد، وطالبوه بأن يأخذ بثأرهم ويغزو مكة وفقًا للمعاهدة المتبادلة بينهم، فهذا واجبه الآن. وعندما وصل هذا الوفد إلى رسول الله ﷺ، قال لهم: " إن مصابهم هو مصابي، وإني ثابت على عهدي". ثم

قال مشيرًا إلى سحابة ممطرة أمامهم - وكان المطر يترل في ذلك الوقت - "كما يترل المطر من هذه الغيوم، كذلك ستصل إليكم الجيوش الإسلامية قريبًا لنصرتكم." (حياة محمد)
وفقًا لإحدى الروايات، أرسل النبي ﷺ ضَمْرَة ﷺ إلى قريش، وأمره أن يخيّرهم بين ثلاثة أمور ليختاروا أحدها قال: إما أن تدفعوا دية قتلى بني خزاعة، أو تعلنوا براءتكم من بني نُفَاثة، أو تنقضوا معاهدة الحديبية. هذه ثلاثة أمور. فذهب ضمرة رسولُ رسول الله ﷺ فاناخ ناقته بباب المسجد الحرام، فدخل وقريش في أنديتها، فأخبرهم ضمرة أنه رسول رسول الله ﷺ وأخبرهم بالذي أمره رسول الله ﷺ به.
فقال قَرَظَة بن عبد عمرو: إن دفعنا دية قتلى بني خزاعة فلن يبقى لدينا لا حبوب ولا مواش، لأن دفع دية هذا العدد الكبير من القتلى يتطلب مبلغًا ضخمًا. أما بخصوص قطع العلاقة مع بني نُفَاثة، فليس هناك قبيلة من قبائل العرب تعظم بيت الله مثلهم. إنهم حلفاؤنا. لن نعلن البراءة من صداقتهم. لن ننفصل عنهم ما دام لدينا شيء، إلا أننا سنحارب محمدًا ﷺ.
قال: سنحارب، لذلك ننهي المعاهدة، أي معاهدة الحديبية. جاء الصحابي ضمرة إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قالت قريش. باختصار، ندمت قريش لاحقًا على فعلتهم وأرسلوا أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ. وقد أخبر الله تعالى النبي ﷺ مسبقًا عن قدوم أبي سفيان، فأخبر النبي ﷺ الناس وفقًا لنبوءته. جاء أبو سفيان لتجديد الصلح. ورد في تفصيل ذلك أن النبي ﷺ قال للصحابة ﷺ قبل قدوم أبي سفيان إلى المدينة: "إن أبا سفيان قادم إليكم، وهو يقول: جدّدوا المعاهدة ومددوا الصلح، لكنه سيرجع غاضبًا، ولن يُقبل قوله".
وفي رواية أخرى، أن حارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة ذهبا إلى أبي سفيان، فقالا: لا بد من الصلح في هذا الأمر، فإن لم يُحل هذا النزاع، فإن محمدًا ﷺ وصحابته سيهاجمونكم.
فانطلق أبو سفيان ومولاه على بعيرين وسار مسرعا حتى وصل إلى المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته دونه. فقال: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني أو بي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امروء مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ. قال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر، فقالت: بل هداني الله للاسلام. وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام. (أيْ بلّغته دعوة الإسلام.) وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر؟
فقام أبو سفيان من عندها، فأتى رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فقال: يا محمد! إني كنت غائبا في صلح الحديبية فاشدد العهد، وزدنا في المدة، فقال رسول الله ﷺ: "فلذلك جئت يا أبا سفيان؟" قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: "هل كان من قبلكم من حدث؟" قال: معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية (أيْ كذِبَ) لا نغير ولا نبدل، فقال رسول الله ﷺ: "فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية

لا نغير ولا نبدل". (نحن على عهدنا و لم نغير فيه شيئا) فأعاد أبو سفيان على رسول الله ﷺ القول، فلم يرد عليه شيئا.

فذهب إلى أبي بكر ﷺ فكلمه وقال: تكلم محمدا أو تجير أنت بين الناس، فقال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله ﷺ. فأتى عمرَ بن الخطاب ﷺ فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر، فأتى عثمان بن عفان ﷺ فقال: إنه ليس في القوم أحد أقرب رحما منك، فزد في مدة الصلح، وجدد العهد، فإن صاحبك لا يرده عليك أبدا، فقال عثمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ. فلما فشل هناك أتى عليا ﷺ فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحما، وإني جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائبا، فاشفع لي إلى محمد (ﷺ). فقال: ويحك يا أبا سفيان! (رد عليه علي ﷺ قائلا: ويحك يا أبا سفيان) والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، (لا سلطة لنا بعد ذلك) قال لعلي: يا أبا الحسن، أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحقْ بأرضك، فتوجه أبو سفيان إلى المسجد النبوي، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ولا والله ما أظن أن يخفرني أحد. ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إني قد أجرت بين الناس فقال رسول الله ﷺ: " أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة"، (أي هذا قوله فقط ولا نقول في ذلك شيئا) ثم ركب بعيرة وانطلق.

وفي رواية أن أبا سفيان تحدث مع السيدة فاطمة رضي الله عنها طالبًا منها أن تشفع له، لكنها اعتذرت عن ذلك. وهكذا عاد أبو سفيان إلى مكة خائبًا وفاشلاً في محاولته لإبرام أي عهد أو ميثاق جديد. ولما عاد إلى قومه وعلِموا بتفاصيل الأمر، لاموه وقالوا له إنك لم تأتِ بأي خير.

وقد ذكر سيدنا المصلح الموعود ﷺ أيضا هذا الحادث من منطلق التاريخ وقال: أرسل أهلُ مكة أبا سفيان إلى المدينة ليمنع المسلمين من الهجوم كيفما أمكن له. بلغ أبو سفيان المدينة وبدأ يركز على أنه لم يكن موجودًا في أثناء صلح الحديبية، لذا ينبغي عقد الميثاق من جديد. ولكن الرسول ﷺ لم يردّ على طلبه لأنه كان من شأن الرد أن يكشف الحقائق. فقام أبو سفيان في المسجد يائسا وقلقا وأعلن: أيها الناس إني قد جئت لتجديد الهدنة نيابة عن أهل مكة. فضحك المسلمون بسماع كلامه الغبي. قال الرسول ﷺ لأبي سفيان: "إن كلامك من طرف واحد، و لم نعقد معك أي مثياق من هذا القبيل".

لقد علّق العاملون في خلية البحث في ربوة قائلين: إن قول أبي سفيان إنه لم يكن موجودًا أثناء صلح الحديبية، بحاجة إلى النظر فيه. وقال ذلك بعض آخرون أيضا، لذا أثار العاملون في خلية البحث هذه النقطة. قد لا تكون هذه النقطة مهمة للقارئ العادي ولكن الذين يريدون أن يتعمّقوا في أمور تاريخية قد يثيرون سؤالا أن قول أبي سفيان إنه لم يكن موجودا في أثناء صلح الحديبية محل نظر لأن معظم كتب التاريخ والسيرة لم تذكر قوله عند حضوره المدينة أنه لم يكن موجودا في أثناء صلح الحديبية.

صحيح أن قوله هذا وارد في بعض كتب السيرة ولكن معظمها لم تذكره ولم يورده معظم المؤرخين أيضا.

الأمر الثالث هو: هل كان أبو سفيان غير موجود بمناسبة صلح الحديبية فعلا؟ فقد ورد في كتاب المغازي للواقدي والسيرة الحلبية وبعض الكتب الأخرى أنه لم يكن موجوداً في تلك المناسبة، لكن ذُكر في معظم كتب التاريخ والسيرة أن النبي ﷺ أرسل عثمانَ ﷺ إلى مكة بمناسبة صلح الحديبية ليخبر أبا سفيان وغيره من زعماء قريش أننا لم نأت للقتال. وهذا يدل على أن أبا سفيان كان موجوداً آنذاك، لكن الأمر الجدير بالانتباه هو أن في مناسبة الحديبية لم يأت أبو سفيان للتفاوض مع النبي ﷺ ولم يأت بنفسه لعقد الميثاق مع كونه زعيم قريش، كما أن توقيعه أو شهادته غير موجودة على الميثاق. لذلك من المحتمل أن ما قاله في المدينة إنه لم يكن موجوداً بمناسبة صلح الحديبية يقصد به أنه لم يكن موجوداً عند كتابة ميثاق الصلح أو أنه لم يكن موجوداً هناك فعلا. على أية حال، لعله كرر الكلام نفسه بعد قدومه إلى المدينة لأن توقيعه ليس موجودا على الميثاق.

على أية حال، كما قلت هذا رأيُ العاملين في خلية البحث، لكنهم بأنفسهم دحضوا كل هذا التفاصيل التي ذكروها بأنفسهم، أي دحضوا رأيهم القائل: لعله لم يشترك في إبرام الميثاق لأن الميثاق لا يحمل توقيعه رغم كونه زعيماً. فلعل أبا سفيان جعل هذا الأمر مبررا لقوله المذكور.

أقول: لا حاجة للوقوع في شك بشأن قوله بعد قدومه إلى المدينة إنه لم يشترك في الميثاق. فإنْ قال ذلك فقد أصاب. غير أنه من المحتمل أن يكون الراوي قد أخطأ في بيان ألفاظ الاشتراك والحضور، لكن الوقائع تبين بشكل أوضح أن إعلانه بعدم كونه جزءاً من الميثاق كان صحيحا. هذا ما يبدو.

وهذا ما كتبه سيدنا المصلح الموعود ﷺ أيضا أن أبا سفيان قال ذلك وقبِل النبي ﷺ كلامه. فيبدو صحيحاً أنه لم يشترك في الميثاق. ونحن نفهم من كلام أبي سفيان أن المقصود منه فقط هو أنه لم يكن موجوداً. على أي حال هذه كانت مسألة تاريخية وقد بينتُها، فلا حاجة للوقوع في أي إبهام بشأنه ولا ينشأ سؤال من هذا القبيل، لأن الأمر واضح.

على أي حال، فقد ورد في تفاصيل الذهاب في هذه الحملة أن النبي ﷺ بدأ يستعد للسفر بسرية، وأمر الناس بالاستعداد للسفر لكن لم يخبرهم إلى أين سيذهبون. كذلك قال النبي ﷺ للسيدة عائشة رضي الله عنها أن تُعدّ زاده للسفر. وبعد أن قال هذا خرج ﷺ من البيت فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها. كانت عائشة عندها تحضر زادا للنبي ﷺ. فسألها أبو بكر ﷺ: هل ينوي رسول الله ﷺ الذهاب في غزوة؟ لزمت عائشة الصمت. ثم قال أبو بكر ﷺ: ربما ينوي الذهاب إلى الروم أو إلى أهل نجد، أو ربما ينوي الخروج نحو قريش لكن الميثاق ومدته ما زالت باقية. ظلت عائشة رضي الله عنها صامتة على كل أسئلته ولم ترد عليها. وفي تلك الأثناء عاد النبي ﷺ فقال أبو بكر: يا رسول الله

أتنوي الخروج إلى مكان ما؟ فقال: "نعم". ثم قال أبو بكر: هل تنوي الذهاب نحو بني أصفر أي الروم؟ قال: "لا". قال أبو بكر: هل تنوي الذهاب نحو أهل نجد؟ قال: "لا". قال أبو بكر: لعلك تنوي الذهاب نحو قريش؟ قال: "نعم". فقال أبو بكر أليس بينك وبينهم ميثاق؟ أي صلح الحديبية. قال ﷺ: "ألم تعلم ما فعلوه ببني كعب". أي قبيلة خزاعة؟

وقد ورد في السيرة الحلبية في تفصيل هذا الحادث أن أبا بكر ﷺ سأل النبي ﷺ: يا رسول الله هل عزمتَ على السفر؟ قال: "نعم".

فقال أبو بكر ﷺ فهل أتجهز أنا أيضا؟ قال النبي ﷺ: "نعم". قال: فأين تريد يا رسول الله؟ قال ﷺ: "أريد قريشا". وقال أيضا: "أَخْفِ ذلك يا أبا بكر". وأمر النبي ﷺ الناسَ بالتجهز، ولكنه طوى عنهم الوجهَ الذي يريده.

ثم إن النبي ﷺ أرسل إلى أهل البادية ومَن حوله من المسلمين في كل ناحية يقول لهم: "مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضرْ رمضانَ بالمدينة". ثم بدأت قبائل العرب تفد إلى المدينة بحسب إعلان النبي ﷺ، وهي أسلَمُ وغِفارٌ ومُزينةُ وأشجعُ وجهينةُ.

وفي رواية أن رسول الله ﷺ استشار أبا بكر ثم عمر رضي الله عنهما، ثم أمر المسلمين كلهم بالتجهز للخروج.

يقول المصلح الموعود ﷺ وهو يسرد هذه القصة: طلب رسول الله ﷺ من إحدى زوجاته أن تجهّز جهازه للسفر، فبدأتْ بذلك. وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها أن تُعدّ له الشعير أو تحمِّص بعض الحبوب الأخرى، (إذ كانت هذه هي الأطعمة المتيسرة عندها) فبدأتْ تنظف الحبوب من التراب وما شابه ذلك. في هذه الأثناء جاء أبو بكر ﷺ إلى بيت ابنته وسألها عما تجهزه، وهل يُعدّ رسول الله ﷺ عدّته لسفر؟ قالت: يبدو أنه ﷺ يستعد لسفر، وقد أمرني لإعداد عدته للسفر. فقال أبو بكر ﷺ: هل هو يستعد لقتال؟ قالت: لا أدري، إنما قال لنا رسول الله ﷺ أن نُعد جهازه للسفر وهذا ما نفعله. (أي قالت عائشة رضي الله عنها إنما نعد العدة لسفره ﷺ ولكن لا ندري وجهته ولا هدفه من سفره هذا).

ثم بعد يومين أو ثلاثة أيام دعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وقال: "تعرفون أن رجال بني خزاعة جاءوني؟" ثم أخبرهما بهذا الحادث وقال: "إن الله تعالى قد أخبرني سلفًا بأن أهل مكة قد خانوا، وإننا على عهد مع هؤلاء القوم المظلومين، وإنه لمما يُنافي الإيمان أن لا نتجهز لمواجهة أهل مكة خوفًا من قوتهم وبأسهم. سوف نذهب هناك في كل حال، فما رأيكما؟". فقال أبو بكر: يا رسول الله، لقد عاهدتَهم، ثم هُمْ قومك فهل ستقتل قومك؟ فقال رسول الله ﷺ: "لن نقتل قومنا بل سنقتل ناقضي العهد".

ثم سأل النبي ﷺ عمرَ ﷺ رأيَه، (وكان لعمر طبعه الخاص، فقال: على بركة الله، وكنت أدعو الله كل يوم أن أرى يوما نقاتل فيه هؤلاء الكفار دفاعا عن رسول الله. فقال النبي ﷺ: "إن أبا بكر رقيق القلب، ولكن الحق يجري على لسان عمر"، أي إن ما قاله عمر هو الرأي السليم. ثم قال لهما النبي ﷺ: "استعِدّا للمسير".

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى القبائل المجاورة بأن مَن يؤمن بالله ورسوله فليحضر المدينة في مستهل شهر رمضان.

وقد اتخذ النبي ﷺ تدابيرَ شتى لإخفاء وِجهة هذا السفر، فأرسل قبْله سريةً قِوامها ثمانية أشخاص بقيادة أبي قتادة بن ربيع إلى وادي إضم الواقع في الاتجاه المعاكس لمكة، ليظن الظانّ أن النبي ﷺ عازمٌ على التوجه إلى تلك الجهة، ولئلا ينتشر خبر مسيره. (ووادي إضم يقع في نجد، شرق المدينة، على بعد ستة وثلاثين ميلاً).

إضافة إلى ذلك، أرسل النبي ﷺ رجالا إلى ضواحي المدينة بمهمة إرجاع كل غريب متجه نحو مكة. وقد أنيطت لعمر ﷺ مهمة الإشراف على هذا العمل، فكان يتفقد ويدور هنا وهناك لإنجازها.

وبعد اتخاذ هذه التدابير كلها رفع النبي ﷺ يديه إلى الله تعالى داعيًا: "اللهم خُذْ على أسماعهم وأبصارهم، فلا يرونا إلا بغتةً ولا يسمعوا بنا إلا فجأة". أي اللهم امنعْ جواسيسَ قريش ووشاتَهم مِن أن يرونا إلى أن نباغتهم بغتةً ولا يتمكنوا من الاطّلاع على خبر لنا إلا بعد أن نفاجئهم فجأةً.

وهناك دعاء آخر للنبي ﷺ بهذه المناسبة وهو: "اَللّٰهُمَّ خُذِ الْعُيُوْنَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتّٰى نَبْغَتَهَا فِيْ بِلَادِهَا"- أي اللهم امنعْ جواسيسَ قريش ووُشاتَهم إلى أن نداهِمَهم في مناطقهم بغتةً.

وهناك مزيد من التفاصيل بشأن سفر النبي ﷺ هذا، وسوف أذكرها فيما بعد إن شاء الله.

الآن أود أن أقول شيئا حول الأوضاع السائدة في العالم. لطالما طلبت منكم الدعاء بهذا الشأن مرارا. إن احتمال توسع الحرب يزداد باستمرار، فادعوا الله تعالى أن يحفظنا من ويلاتها. إن إسرائيل قد شنت الآن هجوما على إيران، وقد اتخذت هذه الحرب منحى خطيرا جدا. إن هؤلاء، أعني قادة إسرائيل، إنما يريدون أن يلحقوا الأضرار بالبلاد الإسلامية واحدة تلو الأخرى، ولكن البلاد الإسلامية في سبات عميق، ولا تفكر إلا في مصلحتها الفردية وأولوياتها الأخرى. إنهم لا يدرون ما الذي سيحدث. لم تعد أعمالهم صالحة، كما أنهم غافلون عن الدعاء أيضا، وإن الكارثة التي ستلحق بهم، والحال كذلك، ستفوق تصورهم. ألهمَهم الله الصواب ليمعنوا النظر في هذا الأمر وليسعوا لتوحيد صفوفهم، لا أن يقولوا إن فلانا من فرقة كذا وفلانا من طائفة كيت، ولن نساعده. إن كل البلاد الإسلامية في خطر، لأن الكفر ملة واحدة، وكل الكافرين قد صاروا ملة واحدة. فلا بد للمسلمين أيضا مِن أن يكونوا أمة

واحدة، ففي هذا فقط تكمن نجاتهم، وإلا فلا نجاة لهم. أدعو الله تعالى أن يحفظ كل بريء وكل مظلوم من أي ضرر فادح. علينا أن نهتم بالدعاء اهتماما كبيرا جدا، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا أيضا لذلك.

****